إلَّا أن ذلك كله بهواه عمل ، حيث طرب ونشط ، لا بمجاهدة ، فهذا رجل يريد أن تسلم له نفسه وماله ، ويقضى شهواته ومناه ، ويكون مخلصًا ، فهذا غير محقق جهاده ، يُعْطى ثواب هذا التعب والعناء ، ويؤجر عليه ، ولكن لم يحارب الهوى ، فى كل موطن حتى يقتله ، فيكون قتيل الله تعالى ، يقتل روحه ، فيحييه ويفرحه بنفسه ، فالحرب من عندك والنصر من عند الله العزيز الحكيم ، فإذا نُصِرْتَ قتلت هواك ، وتخلص روحك منه وقلبك ، فَقَبِلَهُ ، وَحَيَّاه ، ونَوَّرَهُ ، وهداه ، واجتباه ، ورعاه .

الهوى

قال له قائل : وما الهوى[1] ؟ .

قال جوهرة النفس ؛ لأن آدم عليه السلام خُلِقَ من تراب ، فكان الهوى هو عنصره الذى فيه جوهريته الترابية ، فكانت تلك الترابية متشعبة فى النفس ، وهو صفوة غذاء

---

(١) ذكر الحكيم الترمذى فى كتابه « منازل العباد من العبادة » المنزلة الخامسة تحت عنوان منزلة قطع الهوى انظر « منازل العباد من العباة) ص ٨٥ .

الأم ، والهوى تنفس النفس ، وهو كدورته ، وأصل جوهريته ، وهو مظلم ، وهو قوة غذاء الأم .

لأن التراب مظلم ، وأمك إنما ربتك من اللبن ، ومما أخرجت الأرض ، فلذلك قيل فى الحديث : « **لكل شىء نَفَسٌ ، ونفَسُ النَّفْس الهوى** » ، فما دام الروح فيك فأنت كون الروح ، فإذا خرج الروح منك ، صار وجهك وجميع جسدك كأنه ذر عليك التراب .

لأنه لما زال الروح تغير الجسد إلى جنسيته الترابية ، فقد علم شهوات الأرض ولذاتها ، وعرفها بذلك العنصر المظلم المتشعب ، هناك له ميلان ، يهوى إلى جنسه ، فَسُمِّىَ هَوًى ؛ لأنه تَهْوى به النفس ، والنفس تَهْوِى بالقلب ، والقلب يَهْوِى بالأركان إلى العقل ، والعقب يَهْوِى بجميع الجسد غدًا إلى النار .

فمن هاهنا هواك يميل بك إلى نعيم الأرض ؛ لأنه من جنسه .

وإليه يحن ، وله يألف ، فهذه النفس مضطربة إذا حملت عليها أمر الله تعالى ، كذلك الأرض لما حمل عليها الخلق

اضطربت ، فأُسْكِنَتِ بالجبال الرواسى حتى سكنت .

كذلك النفس ، إذا اضطربت فَإِنَّمَا تسكن بالمعرفة ، فكلما كانت معرفتك أعظم وأثقل على القلب ، كانت النفس أسكن ، ومنه قيل : الإيمان أثبتُ فى قلوبهم من الجبال الرواسى ، فحب المحمدة ، والرياسة ، والعلائق ، والعلو ، بشهوة العز ، وإنما أحب العز واشتهاه ، لاستدامة نعمة النفس .

لأنه قد علم أنه إذا عَزَّ وعلا علَى الخلق أدرك مناه ، وجميع ما للجسد والنفس فيه لذة ، ويكون قد قهر الخلق كلهم ، حتى يكون كله على ما يريد ، لا يخالفه أحد ، فينال لذة جميع ما يهوى ، فيدعوك الهوى ، ويميل بك إلى طلب اللذة ، وقضاء الشهوة .

فإذا خاف ألا ينال ما أراده قهر الخلق كلهم ، وقد علم أسباب القهر أنه إنما يكون بأخذ قلوبهم ، أو بخوف فى قلوبهم منه ، لما يرون من عِزِّه ، ونفاذ قوله وأمره ، فلما فهمت النفس أن نوال اللذات والشهوات ، التى هى النفس ، علمتها فى أخذ قلوب الناس ، إما بمحبة مكتسبة ، أو بتزيُّن

عندهم ومدحة ، حتى ينظروا إليك بعين التعظيم ، وإما بعمل يخافونك عليه ، أحببت العز ، واشتهيته وطلبته .

فهذا كله إنما حصل منك من أجل نوال الشهوة واللذة ، التى فى نفسك ، حتى تظفر به ، فما ظفرت به فقد سمنت[1] عليه ، وفرحت وبَطرت وأشرت ، وما لم تظفر به ، طلبت العز ، وهى المتعة ؛ لتقهر الناس ، وتأخذ بقلوبهم ، حتى لا ترد فى أمر شئته ، أو هويته وأردته .

ثمرة الهوى

قال له قائل : فما ثمرة هذا الهوى ؟

قال : ثمرته أن يدعوك إلى أن تدعى الربوبية ، فمن هاهنا ادعى فرعون الربوبية ، حتى يكون نافذ القول فى شهواته ومناه ، جائز الأمر ، دعاه ذلك إلى أن قال : ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2] . هذه ثمرته .

---

(١) السمن : نقيض الهزال والسمين خلاف المهزول « لسان العرب » .
(٢) سورة النازعات – من الآية رقم ٢٤ .